

أسطورة

للأستاذ علي عبد الحلي الحسني

نعم إنها لحديث خرافة وأسطورة من أساطير الأولين ،
ولكنها تفيدنا بأن كل شيء له مقتل ووريد ولا يؤثر فيه عدو
حتى يصيبه في مقتله ويقطع منه الوريد ، وأن دون ذلك المقتل
وحول هذا الوريد حواجز وحصوناً .

وقد تسلط على الأمة الإسلامية عفريت من الحياة الجاهلية
واعتمد عليها بصنوف من الجبال وضروب من الأذى والوبال
ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها كاستخفاف بأحكام الشرع
وتجرؤ على المصا ، ووقوع في عارم الله ، واستعباد لعباد الله
وإمعان في الشهوات ، وإسراف في سبيل المنع واللذات ، وتهافت
على الخسائس والذائل ، وفرار من مكارم الأخلاق والنضائل
« وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ، وإن يروا سبيل النى
يتخذوه سبيلاً » .

والناس طبقات : « عامة » و « أوساط » و « عظام » .
فأما العامة فساكنين تدور حولهم ربحي الحياة بسرعة
لا يرفعون فيها إلى الدين والسعادة الآخروية والاستعداد للموت
أساً ، وإنما همهم أن يؤدوا ضرائبهم ، ويجمعوا لأيام فراغهم ،
ويكسوا عيالهم فهم يكسبون في الحياة كدح الخير والثيران
لا يتبعون إلا للراحة الموهومة ، ولا يستريحون إلا للتعب الواقع ،
فهم من البيت إلى الدكان ، ومن الفراش إلى المصنع أو السوق
أو الإدارة ، ومن نصب إلى نصب ، ومن هم إلى هم ، لا تنتهي همومهم
ولا تنقضي متاعهم ، حتى إذا جاءتهم الساعة بقتة قالوا يا حسرتنا
على ما فرطنا فيها .

وأما الأوساط فهم أسوأ منهم حالاً وأكثر منهم بالاً ،
عذبهم الله بالحرص والجشع ، ينظرون دائماً إلى من فوقهم ، ولا
ينظرون أبداً إلى من دونهم ، فهم في هم متواصل وأحزان متسلسلة
وشقاء مستمر وتدمر جبار وشكوى قائمة وأنين باق ، يبحرون
في رهان لا ينتهي ، ويسابقون جياداً لا تسكن ولا تسبق ، لا يزال
قصب السبق بعيداً كلما انتهوا إلى غاية أخرى فجروا وراءها وهي
تبعد عنهم كما يبتعد الأفق من الطفل الذي يحاول دركه وشماع
الشمس الذي يريد قبضه ، وهكذا يفتلت منهم « النمل الأعلى »
في الننى والثروة والرخاء والجاه ، فيموت الواحد منهم كثيراً
منكسراً لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عديتها ، وبأنه الموت
فيقول « رب لولا آخرتى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين »
وأما العظام من الملوك وأبناء الملوك والأشراف فأنهم يريدون

من الأساطير التي سمعتها في الصغر وبقيت في غصون
الذاكرة ، وبعض ثنائياها أن رجلاً اعتدى عليه عفريت من الجن
يمثل ما كان يعتدى به الجن على البشر فبرز الرجل بكل ما أوتي
من حول وطول وبكل ما قدر عليه من سلاح وشكة ليقتله .
هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض ولم يدع في
القوس منزلاً لكنه لم يشكك عدوه ولم يصب منه مقتلاً .

وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ويجرب سلاحاً
بعد سلاح والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأنه من نفسه على
أسان ، ومن سهام الرجل وهجمات في حصن حصين .

حار الرجل في أمره وأعياء أمر العفريت وكاد يقطع من قتله
الرجاء إذ أخبره أحد المقلد أن روح هذا العفريت في حوصلة
ببغاء وهذه الببغاء في قفص من حديد ، وهذا القفص معلق في
غصن شجرة ، وهذه الشجرة في غابة كثيفة يسكنها سبع ضارية
وحيات فأنكة ، وعقارب سامة ، ودونها خرط القتاد ، وحولها
شم الجبال .

وما زال الرجل يطلع جبلاً بعد جبل ، ويقطع وادياً بعد واد
ويقتل وحشياً بعد وحش ، حتى خلص إلى هذا القفص وخنق
هذه الببغاء ، ولم يكذب قتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها
الأرض والفضاء ، وأظلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت
صيحته الأخيرة وكان جثة هامدة .. وهكذا قتل الرجل عدوه
بعد ما لقي منه عرق القربة .

لملك سمعت هذه الأسطورة من مجوز في البيت تحكيها
لأحفادها أو أسباطها فررت بها مستهزئاً وقلت :
حديث خرافة يا أم عمرو !

فإن أيتهم لئسا الاحصار المدرسة ، وخنق البيت ، وقبر
المواهب ، وواد الرغبات ، فلا تذكرونا ... إذا خرجنا إلى الشارع
ننهتف ، أو بقينا في المدرس نصفق ، أو أسلفنا فكرتنا وعقلنا ،
لتيارات لا تتفق ورسالتنا السامية ، وما يملقه الوطن على جهودنا
ويحوتها من خير عظيم ...
الطاهر أحمد مكي

ويستفرغ الدموع من الشئون ويرجف القصور ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من أبناء السلاطين والأمراء مثل ابن آدم وشقيق البخى ، يسمع أحدهم — وهو خارج في قمص أو رانح في لهو — قارئاً يقرأ : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » الآية فيقول والله لقد آن ، والله لقد آن ، ويرى آلات الله ويخرج من أبهة الملوك وحشمة السلاطين إلى تبذل الفقراء وتكشف الزهاد .

فهل فقدت الألفاظ على تعاقب الأيام معانيها ، أم اعتلت الأذواق أم استعجمت اللغات أم ماذا ؟

إن شيئاً من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الإنسان تغيرت تغيراً عظيماً . كان أمر الدين في الزمان الماضي — برغم جميع أدوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية — جداً غير هزل . وكان أمر الدين يعني كل واحد وبهمه كما أنهم الحقائق والأمر الواقعية ، وكان دونه في بعض الأحيان حجب من الترف والطبع والزعم وسوء المعرفة وقلة العلم فإذا ارتفعت هذه الحجب وتطرفت دعوة الدين إلى القلوب لم يحل دون القوة وإصلاح الحال شيء .

أما الآن فقد أصبح الدين موضوعاً تاريخياً أو حديثاً علمياً بحثاً ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع المعصرى كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالى وأخباره لا يعود على التحدث والمستمعين بضرر أو نفع ولا يطالبهم بعمل أو ترك ولا يحسمهم في صميم مسائلهم ولا يعنى الإنسان ولا يهمه في حياته إلا بمقدار ما يتطرق بمعرفته ودراسته في بعض المجالس أو ما يحدث به أهله عند الحاجة أو ما يجلب به نقماً ويدفع به ضرراً في مجتمع لا يزال يدين بالدين أو يحترمه فليس له إلا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتسكاليها جد الجد ولب اللباب وأصبحت مسائلها هم الشيخ ودروس الصبي وشغل الشاب ، وأصبح الجهاد في سبيلها والنجاح في ميدانها ، مقياس الفتنة والذكاء ومعياري الظرافة واللباقة ورمز الروعة والشهامة .

وهنا يقف الداعي الدينى حائراً في أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفسية الباردة في سبيل الدين ، أنه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه ، وشكوكاً وريباً تحسنت

أن يلهموا الدنيا طولا وعرضاً ، وينتهبوا السرقات جرياً وركضاً لا يشقى عليهم ولا يروى غليلهم وهم من دقائق الراحة إلى دقائق ، ومن بدائع إلى بدائع ، ومن ابتكار إلى ابتكار ، ومن لذيذ في الطعام والشراب إلى ألد ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والأزياء إلى أحدث ، لا تكفيهم في ذلك موارد قطر بأسره ، ومتابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجأوا إلى استقراض وتجارات وخرائب جديدة وإتاوات ولا يبالون في سبيل ذلك أن يرهقوا بأيدي عدوهم رداء الزهراء أو كساء أبي ذر أو شملة أو يس أو مصحف عثمان أو صمصامة عمرو بن معدى كرب أو رمح الزبير أو بردة كعب بن زهير ويهيشوا صبوحاً أو غبوقاً . وقد هجم على غفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا به من كل جانب درموه عن قوس واحدة ولكن لم ينكأوا عدوهم ولم يصيبوا منه مقتلاً .

أتى الوعاظ والأمراء بالمعروف والناهون عن المنكر دروساً في الأخلاق وأحاديث في الترغيب والترهيب ، وطعموا الناس في الجنة وحذروهم من النار وبشروهم بالوعود وخوفوهم من الوعيد فسمع الناس كل ذلك في هدوء ، ولم يحرك منهم ساكناً ولم يغير منهم خلقاً .

ألف المؤلفون كتباً جاءوا فيها بكل رقيق ، أوردوا فيها حكايات زهد العمرين ، وتكشف على بن أبي طالب ، ومواعظ الحسن البصرى ، وكلمات ذى النون المصرى ، ورقائق الفضيل بن عياض ، وزهديات أبي المتاهية ، وفصاحة الواعظ ابن الجوزى وتحليل الإمام الغزالي .

قوارع تبرى العظم من كالم مض

فقام الأغنياء والأمراء والملوك فاقنوا هذه الكتب وزينوا بها مكاتبهم وتحذثوا عنها إلى ندمائهم وزائريهم في لباقة ورشاقة ولكن لم تنفذ سهاها من الميول إلى القلوب ولم تجاوز أحاديثها تراقيم .

قام الخطباء البارعون فالتقوا خطباً أتممت الصمم واستترت الصمم فسممها هؤلاء وأثنتوا على براعتهم وفصاحتهم ومضوا لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سبته ولم يحدثوا لله عهداً لقد كان والله أهل من هذا يهز القلوب في الجوامع

غزوها التجارى والعالمى .

نافس تجار الغرب بدافع من حب الفنى والثروة واحتكار الأموال — فى الصناعة والانتاج وغزوا بيضاتهم الشرق وامتنسوا بها دماءه ، ولم يقض ذلك لبائسهم لأن نطاق الضرورة ضيق والجشع ما به نطاق فنافسوا فى انتاج دقائق المدنية وفضول الصنائع وكاليات الحياة وصبوا على الشرق سباً واستهلكوا فى ترويضها كل ذكاء وأدب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سداجة الشرق وحبه للدعة والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكاليات إن دخلت فى أصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق ، وأصبح الذى لا يتجلى بها لا يعد من الإحياء ، ولا يماثل فى المجتمع معاملة سواء ، وأخذت بتلايب الشرق وأذهلته عن الدين والآخرة ، وعن كل شئ غيرها فى الدنيا ، وهاجت عليه هوماً لا إرجاء لها وبعت فيه ثراها للمال لا نهاية له ، وأجفحت عليه الحياة حبسها لا يسمع فيها إلا « هل من مزيد » .

وما يكاد الشرق يصل إلى هذه المنتجات وشروط الحياة على جسر من الثاغب والمصائب وعلى طريق من شوك وقتاد ، ولا يكاد يتجلى بها إلا وتصبح هذه المستحدثات آثاراً عتيقة وأطماراً بالية ، ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات فينكص على عقبيه ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم — بوجه مشروع أو غير مشروع — ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه إلا ويرحل المنسوخ ويحل الناسخ — وهكذا لا يزال من حياته فى جهاد مضن شاق ، ومع المصانع الغربية والتصدير الغربى فى رهان دائم يسبقه فيلحقه ويلحقه فيسبقه ، ولا يزال من عيشه فى مضض وغصص يتجرعه ، ولا يكاد يسميه وبأنيبه الموت من كل مكان وما هو يبيت .

أفسدت المدينة الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق وأذواقهم على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، ألانت منهم الفتاة وأطفأت فيهم حمرة الحياة ، وأحدثت فيهم التخلف الأوربى . وأصبحت القروسة العربية والنخوة التركية والفتوة الفارسية والبطولة الهندية والفيرة الأفغانية حديثاً من أحاديث التاريخ وأصبحت الحياة فى حواضر الشرق بل وفى بواديه نسخة قاصرة محبوخة من الحياة الغربية المصطنعة لها ضرائها وليست لها سرائها ولها الغرم دون النعم .

من النفوس فسادها بحكمته وملأ القلب إيماناً وطمأنينة ولكنه ههنا يجد نفسه فى موقف غريب لم يمهده ، فلا إنكار ولا جحود ولا إباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ولكن حياد تام فى مسألة الدين واستغناء عن كل ما يتصل بالآخرة ، وإخلاء الأرض ، ورغى بالحياة الدنيا واطمئننا بها . هنا يقف الداعى حائراً فى أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أى باب يدخلها ، إنه يجد حولها غشاء من حب الدنيا والمال فلا سبيل إليها ولا نفوذ فيها إلا بطريق الدنيا والمال ، وأن سبيل الدين غير سبيل المال ، وأن طريق النيب غير طريق الحس والشهود ، فإذا بصنع ومن أين يبدأ ؟

إنه ألقى على القوم مواعظه ووجه إليهم خطابه وحكمته وأجلب عليهم بحجج العلم والبراهين ، فذهب كل ذلك فيهم سدى وأجابه لسان الحال قائلاً « قلوبنا فى آكثة مما ندعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » . قرأنا فى حكايات « ألف ليلة وليلة » أن السندباد البحرى وجد بيضة عتقاء فظنها لكبرها ونجاستها وملاستها قصرأ من رخام فدار حولها لعله يجد باباً يدخل منه فى داخل القصر ودار مراراً عديدة ، ولكنه لم يجد باباً وعرف بعد ذلك أنها بيضة عتقاء لا قصر من القصور .

كذلك يدور الداعى حول هذه النفسية المستديرة التى استهوتها الدنيا ، وغشى عليها حب المال أو الحياة فلا يجد فيها منفذاً يتفقد منه إلى النفسية وينزل فى أعماقها فيقطع منها الرجاء وينقلب منها خاسئاً وهو حسير .

روح هذا المفريت الجاهل إذن هو الإخلاء إلى الأرض والرضى بالحياة الدنيا وعبادة للمال والمادة ...

هذا مقتل هذا المفريت وهذا أبهره ووروده .

وإنما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة المؤلفين ، وأصحاب البراج وإخلاص المخلصين وحكمة الحكماء لأنهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصيبوا المدو فى مقتل . بلغت السادية أوجهاً فى عهد الاستيلاء الأوربى وأصبحت فلسفة وفناً وحياة ودنيا ، وليس مظهر من مظاهر حياتها ، ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم إلا والفضل فيه يرجع إلى أوروبا وسيطرتها السياسية والاقتصادية مباشرة أو بواسطة وإلى

المسموم الذي ولدته الثورة الفرنسية وارتضفته الفوضى الخلقية ، والإباحة في أوروبا وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذي بنيت في القلوب النفاق ، ويسقي غرس الشهوات ويقوّض دعائم العمران ويفسد نظام الأسرة ويسخر من كل فضيلة ، ويستهمين بكل أدب ونظام ويزين للقارئ مذهب اللذة والانتفاع وانتهاز الفرص ويلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم في حب المال والميل الجنسي ، ويصور العالم كله كأنه ليس إلا ظهور هاتين الماظفتين وليس وراء ذلك حقيقة علمية أو مبدأ سام ، أو غرض شريف .

وقد انتشر هذا الطابور في أنحاء العالم عن طريق الأدب ، والروايات والمجلات والراديو ، والسينما وتأثر به الحاضر والبادي وتحدثت به العوائق في خدورها ، وصار ينتخر صرح الحضارة الدينية والأدب الإسلامي حتى تسرب المطب اليوم إلى لبابه . وهكذا أصبح العالم كله شعبياً وحكومات وأفراداً تحت سلطان المادية والجاء والشهوات ، قد شملت منه كل موضع ومنفذ وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكته في سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكائه ، وخلقت في الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ولا تفكر إلا في اللذة والهناء والسعادة الدنيوية ولا تهتم إلا بهذه الحياة ومطالبها السكاذبة التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي إنما فرضها على الإنسان الحياة المزورة والمجتمع الفاسد والتجارة الجشعة .

كيف يحمل في هذه المادية الدين الذي أساسه الإيمان بالنيب وإيثار الآخرة على العاجلة الذي يقول « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون » والذي يقول « فأما من طمى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » والذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ويقول « حفت الجنة بالكاره »

إذن فالمادية في هذا العصر هي علة الملل وعدو الدين الألد ومزاحمة الأكبر ، وأن أوروبا هي زعيمها الذي تولى كبرها ووكرها الذي تلطع منه وتأوى إليه وفيه تبيض وتقرخ .

فأين ذلك البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع ؟ ؟

علي عبد الحى الحسى

لكهنو (الهند)

أصبح الناس في كل بلاد في تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أسرهم شيئاً وأصبح الوالد لا يملك ولده والماهل لا يملك أهل بيته بل وأصبح الإنسان لا يملك نفسه أمام الهوى وانتقاد المجتمع اللاذع ووخز الضمير وغاص الناس في بحر المدينة إلى آذانهم فترى الصعاليك من المعجم يقدون في حلة ويرجعون في أخرى ، وترى الحفاة المرأة العالة من العرب رعاء الثناء ، يتطاولون في البنيان ويتفخرون باقتناء السيارات الأمريكية من أحدث الطراز وأنقر الأنواع ، حتى يخاف أن تفقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التي ملأت التاريخ والأدب لجديتها وأخبارها .

شجنت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامي وأنبقت ثرائين التجارة الغربية وعروقتها — وهي طلائع السيادة الغربية وسيطرتها السياسية ومهامها التي لا تطيش — في جوف أقداس البلاد الإسلامية واحشائها وجاست خلال الديار وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية حتى عادوا لا يتصورون الحياة والمعيشة بغيرها ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح إلا بها ، وامتنعت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالإسفنج تشربها في بلادهم ، وصبتها في بلادها — وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم يعرق جيئته وكبد عيئته وبرز ميتة في أخلاقه ، وعلى حساب دينه ينتقل إلى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الإسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول أو لقضاء مأرب رجالها كما يقول الناس إلى الاستدانة من الدول الأجنبية تخفت لذلك ورحبت به ورضخت لها بعض المال على شروط تجارية امتيازات سياسية ، وأقبلت على البلاد الإسلامية تحلب ضرعها وتستخرج الذهب الوهاج وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها وتهتبل فرصة العمل في أرضها فتنشط رسالياتها وتنشر في أهلها المسلمين « رسالة الدين والحضارة » وتلحق عدواها الممعنين في الجهالة والفقر والبداءة ، وتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء والجياح على المائدة وهكذا أصبح بلاد الإسلام بين أخطار من التدهور والإلحاد والاحتلال الأجنبي .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب السلول